المبحث السابع

عطف المترادف

مما يعترض قاعدة التشريك الإعرابي في عطف المفردات ، ويتوارد عليها ، ما يسمى بعطف المترادف ، ذلك أن واو العطف تقوم في المفردات بإشراك المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب وحكمه ، وتفيد مع ذلك المغايرة بين المعطوف وما عطف عليه ، والمترادف هو نفس المعطوف عليه ، فلا فائدة من التشريك ولا مغايرة بينهما ، فهو من قبيل عطف الشيء على نفسه ، ولذا اعتبر البلاغيون ذلك من الحشو المفسد . يقول العصام تعليقًا على قول الشاعر (وألفى قولها كذبا ومينا) : « الكذب يرادف المين ، ولا فائدة في الجمع بينهما ، ولا يبعد أن يجعل ذلك حشوًا مفسدًا ، لأن عطف المين يفيد المغايرة وهي باطلة » [1] .

واعتبر صاحب المثل السائر هذا النوع من العطف ضربًا من التكرار ، وجعله عيبًا على الناثر وعلى الناظم في صدر الأبيات ، وأباحه للشاعر في القوافي . فقد ذكر ابن الأثير قول أبي تمام :

قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ الصَّبَا وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا أَثْلاثَا

ورأى أن الصبا والقبول معناهما واحد ، ثم قال : « وهذا الضرب من التكرير قد خبط فيه علماء البيان خبطًا كثيرًا ، والأكثر منهم أجازه ، فقالوا إن كانت الألفاظ متغايرة والمعنى المعبر عنه واحدًا فليس استعمال ذلك بمعيب ، وهذا القول فيه نظر ، والذي عندي فيه أن الناثر يعاب على استعماله مطلقًا إذا

---

(١) الأطول ٣٤/٢ .

أتى لغير فائدة ، أما الناظم فإنه يعاب عليه في موضع دون موضع ، أما الموضع الذي يعاب استعماله فيه فهو صدور الأبيات الشعرية وما والاها ، وأما الموضع الذي لا يعاب فيه فهو الأعجاز من الأبيات لمكان القافية »[1] .

وأبو هلال العسكري يرى الترادف عيبًا في الشعر وسببًا من أسباب رداءته ، ذلك أن الشعر في نظره فن الكلم الراقي والبيان الساحر . يقول أبو هلال تعليقا على قول أبي محجن في شرحه لديوانه :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانِي وَخَلَّصَنِي مِن ابْنِ جَهْرَاءَ وَالبُوصِيّ قَدْ حَبَسَا

« البوصى : المركب ، فارسي معرب ، ونجاني وخلصني واحد في المعنى ، وإنما كرر للتوكيد ، وقد يقال : أوجعته وآلمته ، وليس ذلك بالجيد في الشعر ، لأن من حق الشعر أن تكون ألفاظه كالوحي ، ومعانيه كالسحر »[2] .

وربما تكون عبارة أبي هلال مشعرة بإباحة ذلك التكرار في النثر، لكنه على أية حال هو عيب يقلل من شأن الكلام وينقص من بلاغته .

لكن كثيراً من الأدباء واللغويين أباحوا العطف إذا اتفقت المعاني ، واختلفت الألفاظ ، معتبرين اختلاف الألفاظ نوعًا من التغاير يصح معه العطف .

يقول ابن الأنباري تعليقًا على قول الشاعر :

فَمَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي وَيَبْعُدِ

« ونسق يبعد على ينأ ، ومعناهما واحد لما اختلف اللفظان ، كما قال الآخر:

أَلا حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدُ وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

فنسق النأى على البعد لما اختلف اللفظان »[3].

ويقول أبو العلاء في قول البحتري :

---

(١) المثل السائر القسم الثالث ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) شرح ديوان أبى محجن ص ٦٢ .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٠٢ .

وَجَّهْ رِكَابَك مُصْـعِدًا يَصْـعَدْ بِنَـا جَدٌّ وَنَحلٌ بِـــَما نَـرُومُ وَنَظْفَـرِ

« أهل اللغة يفسرون نحل أي نظفر ، وعلى ذلك فسروا قول الشاعر :

وَشَـحِيح الغُـرَابَ أَنْ سِـرْ إِلَيْهَـا تَحْـــلَ مِنْهَـــا بِنَائِـــلٍ وَقَبُـــولِ

فإذا حمل على ذلك فهو مما كرر معناه لاختلاف اللفظ ، كما قال عدي : كذبا ومينا ، وكما قال الحطيئة : وهند أتى من دونها النأى والبعد»[1] .

وذهب المرحوم سليمان نوار إلى أن الواو بين المترادفات ليست عاطفة ، وأولى أن تجعل مفسرة « وبهذا أيضًا تعلم أن الواو الداخلة فيما يسمونه عطف المترادفين ، كعطف المين على الكذب أو العكس ، ليست من العطف الذي نحن فيه،وهو عطف أحد الشيئين على الآخر لقصد التشريك في حكم من الأحكام، ولو قلت إن الواو الداخلة على المرادف ليست للعطف ، وإنما هى للتفسير كأيّ لم تخطئ»[2] .

هذه الآراء التي نقلتها باحتمالات قبولها أو رفضها كان يجب أن تكون بعيدة عن مجال القرآن الكريم ، ذلك أن الحشو المفسد أو التكرار المعيب الخالي عن الفائدة مما تنزه عنه التنزيل ، فليس القرآن شعرًا تحكمه القافية ، ولا سجعًا كسجع الكهان تقيده الفاصلة ، وهو بإعجاز بيانه فوق تصور العى أو التطويل ، فهل يمكن ورود مثل هذا العطف فيه ؟

للعلماء في ذلك آراء :

أولاً : تنزيه كتاب الله عنه ، وكل ما وجد فيه مما يوهم الترادف لابد فيه من معنى زائد وفائدة تتجدد مع العطف ، وهو رأي المبرد وكثيرين سواه ، كالرازي بمحاولاته المتكررة تفسير المعطوف بغير ما يعطف عليه ، وابن تيمية الذي يقول : « وقد جاء في الشعر ما ذكر أنه عطف لاختلاف اللفظ كقوله : وألفى قولها كذبًا ومينا .

---

(١) عبث الوليد ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) مذكرات في الفصل والوصل ص ٤٢ .

ومن الناس من يدّعى أن مثل هذا جاء في كتاب الله كما يذكرونه في قوله ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) وهذا غلط ، مثل هذا لا يجيء في القرآن ولا في كلام فصيح » [١] .

ثانيًا : جواز العطف إذا كان الغرض إلى تأكيد المعنى . يقول ابن الأثير في التكرير الذي يدل على معنى واحد لا غير : «وهذا وأمثاله ينظر في الغرض المقصود به وهو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لمحة الإيجاز وأولى بالاستعمال ، وقد ورد في القرآن كثيرا كقوله تعالى في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٦) فإن البث والحزن بمعنى واحد ، وإنما كرره هاهنا لشدة الخطب النازل به وتكاثر سهامه النازلة في قلبه» [٢] .

وقد أجاز ذلك ابن قتيبة في قوله ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ (الزخرف:٨٠) حيث قال : «والنجوى هو السر ، وقد يجوز أن يكون أراد بالسر ما أسروه في أنفسهم ، وبالنجوى ما تساروا به» [٣] .

وينقل السيوطي رأيًا ثالثًا مؤداه أن المترادفين بمجموعهما يضيفان معنى زائدًا وإن لم يكن بينهما تفاوت ، لأن الزيادة في التركيب تؤدي إلى زيادة في المعنى جريًا على القاعدة التي تقول «زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى» . يقول السيوطي ملخصًا الآراء الثلاثة : (عطف أحد المترادفين على الآخر والقصد منه التأكيد أيضًا ، وجعل منه ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ ﴾ ـ ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ ـ ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ـ ﴿ لَّا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ ـ ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ . قال الخليل : العوج والأمت بمعنى واحد ـ ﴿ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ ـ ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ـ

---

(١) الإيمان ص ١٥٢ .

(٢) المثل السائر القسم الثالث ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ - ﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ - ﴿ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ - ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ - فإن (نَصِبَ) كـ(لَغِبَ) وزنًا ومعنىً - ﴿ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، وأنكر المبرد وجود هذا النوع في القرآن وأوَّلَ ما سبق على اختلاف المعنيين ، وقال بعضهم : المُخلِّص في هذا أن نعتقد أن مجموع المترادفين يُحصّل معنى لا يوجد عند انفرادهما ، وأن التركيب يحدث معنى زائدًا ، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ» [1] .

والحق أن المقارنة بين ما جاء في الشواهد الشعرية السابقة وبين ما جاء في الكتاب العزيز مقارنة لا تعتمد على حس هذه اللغة ، ولا تسمع لهمس الأغراض التي سيقت من أجلها ، فإن الكذب والمين والنأى والبعد وأمثالهما مهما تكلف المرء تبرير العطف فيه فلا يخرج عن كونه زيادة تأكيد تطلبه المقام أو لم يتطلبه ، سواء عذر الشاعر لوقوعه تحت ضرورة القافية أو لم يعذر، وسواء أبيح ذلك في النثر أو لم يبح ، فإن غاية ذلك كله الاعتذار عن وقوعه وإعفاء الأديب من الإدانة به ، وليس هذا موضع بحث في كتاب الله ، حيث المجال الوحيد للاجتهاد وانصراف الأفهام والأذواق إلى استكشاف أسرار الإعجاز واستلهام وجوه البلاغة والبيان التي تقاصرت عنها الهمم ، وتجمدت أمامها أقدر الألسنة والأقلام ، وليس ثمة مجال للاعتذار عن تقصير فيه .

والقرآن الذي علَّم المسلمين آداب استخدام الألفاظ في تخاطبهم اليومي ، ودعاهم إلى استخدام الكلمات التي لا توقع في اللبس والإيهام ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ (البقرة:١٠٤) ، هذا القرآن لا يمكن أن تترادف فيه الكلمات سواء أفادت زيادة في المعنى أم لم تفد ، فلكل كلمة في القرآن وقعها ودلالتها ، ولها إذا تكررت في كل موضع بلاغتها وسحرها ، ولذا فإنني لا أقبل القول بوجود الترادف في القرآن أصلاً ،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/٧١ .

لأن ذلك بحاجة إلى الاعتذار عن وجوده ، وهو غير وارد في بيان الله ومعجزته الخالدة . يقول الدكتور أحمد بدوي : «لا تجد في القرآن ترادفًا ، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا ، ولما بين الكلمات من فروق ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة ، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر فقال ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات:١٤) فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه» [(١)] .

وسوف أستعرض الآن أشهر الأمثلة التي توهم البعض فيها الترادف ، لنرى كيف برئ القرآن من هذه الدعوى :

١- الدعاء والنداء :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة: ١٧١) .

هذا التشبيه يهدف إلى تصوير الكافر الذي يسمع نداء الحق ، فيصم أذنيه عن سماعه حتى لا ينفذ منه شيء إلى قلبه ـ بصورة البهائم التي تسمع نداء الراعي فلا تعقل منه أكثر من مجرد الصوت ، إذ هو بالنسبة إليها أصوات خالية من المضمون ، والنداء هو الذي يؤدي هذا الغرض وليس الدعاء ، وهو ما صرح به الراغب حيث يقول : «النداء رفع الصوت وظهوره ، وقد يقال ذلك للصوت المجرد ، وإياه قصد بقوله ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ ، أي لا يعرف إلا الصوت المجرد ، دون المعنى الذي يقتضيه تركيب الكلام» [(٢)] .

أما الدعاء فلا يكون إلا حيث يُفهم منه الإقبال ، فلو اقتصر على مجرد الدعاء لأوهم أن لدى الكافرين وعيًا بما يُدعون إليه ، وهو يتنافى مع قوله

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٨٦ .

﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ولو اقتصر على النداء وحده لأوهم ذلك أن دعوة القرآن ليست من الوضوح بحيث يعيها ويستجيب لها من كفر بها ، هذا في المشبه ، وفي المشبه به نجد هذا المعنى أيضًا ، فالراعي يدعو بصوت واضح مفهوم ، ولكن دعاءه يتحول لدى البهائم مجرد أصوات خالية من المضمون ، وليس ذلك عيبًا في دعوة الراعي ، وإنما العيب فيما سمع هذا الدعاء .

ولذلك استعمل القرآن النداء في الدعاء الخافت الذي يشبه حديث النفس ، وما لا يكاد يبين المرء عنه ، وكأن صاحبه لفرط الاستحياء تتعثر على لسانه الكلمات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم:٢-٤) .

بخلاف قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ (آل عمران:٣٨) ، فالنداء الأول حديث نفس شاكية إلى الله ضعف البدن ، وعجز الشيخوخة ، والحاجة إلى الولد ، وكأن صاحب الدعاء يرى طلب الولد في هذه الحالة أمرًا غريبًا ، وأمنية خارجة عن العادة ، بعد أن أوغل في الكبر ، وأصبحت امرأته عجوزًا عقيمًا ، فهو في حياء من الإفصاح بمطلبه والجهر بحاجته ، لكنه حين دخل على مريم ، ووجد عندها من الطعام ما يستحيل وجوده في زمانه ومكانه ، وعلم منها أن ذلك رزق الله يأتيها بأمره كما يوحي به قوله ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ لم يتردد في الجهر بدعوته .

وأنت تجد لقوله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ دلالة واضحة على الربط بين الدعاء وما شاهده لدى مريم ، لأن ذلك الذي يجد غرابة في طلبه لم يعد غريبًا بعد أن شاهد من رحمة الله بمريم ما شاهده . يقول ابن كثير : «لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع حينئذ في الولد ، وإن كان شيخًا كبيرًا قد وهن العظم

منه ، واشتعل الرأس شيبًا »[1] . ولذلك أيضًا لم يقدم هنا زكريا بين يدي حاجته شكواه وضعف حاله زيادة في الاستعطاف كما فعل هناك .

٢- البث والحزن :

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يوسف:٨٦) .

نقلنا آنفًا عن المثل السائر ما يفيد تكرارهما بغرض التوكيد . وقال القرطبي : « حقيقة البث في اللغة : ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها ، وهو من بثثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بثًّا مجازًا . قال ذو الرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لَمَيَّةَ نَاقَتِي ... فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُه

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُه

وقال ابن عباس : بثي : همي . الحسن : حاجتي ، وقيل أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه ، ﴿ وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ معطوف عليه أعاده بغير لفظه »[2].

والجملة الأخيرة من كلامه توهم الترادف .

وقد جعلهما الرازي نوعين من الحزن ، والعطف جاء على سبيل الترقي .

يقول الرازي : « فالحزن إذا ستره الإنسان كان همًّا ، وإذا ذكره لغيره كان بثًّا، وقالوا البث أشد الحزن ، والحزن أشد الهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليًا عليه ، وأما إذا عظم وعجز الإنسان عن ضبطه ، وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثًّا ، وذلك يدل على أن الإنسان صار عاجزًا عنه ، وهو قد استولى على الإنسان ، فقوله ﴿ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل »[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٥/٣٤٨٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ٥/١٥٨ .

وهذه التعليلات واقفة عند التفسير اللغوي لا تتجاوزه إلى همس السياق وما يلوح به المقام ، وهو ما لا نفهم نكتة العطف بدونه ، فماذا قبل هذه الآية ؟ حوار بين الأبناء وأبيهم يعتذر فيه الأبناء عن ترك أخيهم سجينًا في مصر بما اقترفت يداه من السرقة التي شاع خبرها بين الظاعنين والمقيمين ، ويرد الأب عليهم متهمًا إياهم بالتفريط والتآمر كما ائتمروا على يوسف من قبل ، ثم تنفلت من بين فكيه الكلمات مفصحة عن رجاء مكتوم وسر يعلمه الله ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ (يوسف:٨٣) ، قال هذا ثم عاد إلى قديم حزنه الذي تجدد بمأساة زادته لوعة وحسرة ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف:٨٤) ، وهنا ثار الأبناء لعلمهم أن يوسف قد هلك منذ زمن بعيد ، وأن أباهم يقتل نفسه حزنًا بلا جدوى ، فلو ذكر الضائع الجديد لرحموه ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف:٨٥) ، فها هنا استنكار لأمرين: التعلق بأمل مفقود،والحزن بلا جدوى ، وهنا أدرك يعقوب أن الأبناء لم يفهموا ، فانصرف عنهم شاكيًا إلى الله حاجته في رد الغائبين ، ورحمته بما يعانيه من أحزان ، ثم كأنه يعتذر لأبنائه عما يعلمه ولا يعلمونه فيقول ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٦) ، وذلك بيان لسر إصراره على ذكر يوسف ، وتعلقه بأمل العودة ، فالشكوى هنا ضراعة إلى الله أن يعيد إليه الغائبين ، وأن يرحم همه وحزنه ، الأول ما عبر عنه بالبث ، والثاني زائل بتحقيق الأول ، فلو كانا بمعنى واحد لكانت شكواه طعنًا في صبره على قضاءِ الله ، فإن استمرار الحزن على قضاءٍ وقع لا مرد له من الله مما يترفع عنه الأنبياء ، وإنما حسن هذا الحزن علم يعقوب من الله حياة يوسف ، فشكواه هنا ضراعة إلى الله أن يعيده إليه ويزيل ألم الفراق عنه ، وهذا ما أدركه الحسن رضي الله عنه ، حيث فسر البث بالحاجة فعبر عن رغبة يعقوب الحبيسة في صدره ، ومن ثَمَّ قدم البث لأنه الأهم ، والسبب الذي يزيل الحزن ويبدد الهم ، ولو كان البث هنا أشد الحزن لما كان لذكر الحزن كبير فائدة .

٣- السر والنجوى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ (التوبة:٧٨) ـ ﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ (الزخرف:٨٠) ـ نقلنا عن ابن قتيبة في أحد وجهين ذكرهما أن السر والنجوى معناهما واحد ، كما نقلنا عن السيوطي مثله، والحق أنهما متغايران ، فالسر كما يقول الراغب : «هو الحديث المكتم في النفس» [١] .

وفي سورة المجادلة حديث طويل عما كان يصنعه المنافقون من التناجي بينهم بالإثم والعدوان ، وصرحت الآيات هناك بأن المراد من النجوى ما يسره بعضهم إلى بعض ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ (المجادلة:٧) ، ثم حذر الله المؤمنين أن يتساروا بما فيه الأذى والمضرة بالناس ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (المجادلة:١٠) ، ودعاهم إلى تقديم صدقة بين يدي نجواهم في محاولة للقضاء على هذا الخطر الذي يضر بالعلاقات ويقطع الروابط بين المسلمين .

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ ، جاء بعده ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾(التوبة:٧٩)، وهو تفسير لما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ، والطعن في أعمال المسلمين ، فهددهم الله بأنه يراقب ذلك ويحصيه وسيجازيهم عليه مهما بالغوا في التكتم بينهم حتى لا يعلم الرسول والمؤمنون ، وهو الغرض من ذكر السر قبله كقوله تعالى ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ مبالغة منهم في عدم ظهورها ، وحرصهم على أن تكون أحاديثهم بين من تتأكد فيهم الثقة بعدم إفشاء السر . يقول صاحب المنار : «﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ ، أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ويقولون ما لا يفعلون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، ولمز الرسول ، أن الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم ، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم) [٢] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٢٨ .

(٢) المنار ٥٦٢/١٠ .

٤- الأثاث والمتاع :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾ (النحل:٨٠) .

قال الألوسي : « ﴿ وَمَتَٰعًا ﴾، أي شيئًا يتمتع به وينتفع في المتجر والمعاش، قاله المفضل . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : المتاع : الزينة . وقال الخليل : الأثاث والمتاع واحد ، والعطف لتنزيل تغاير اللفظ منزلة تغاير المعنى كما في قوله : وألفى قولها كذبًا ومينا ـ والأول أولى» [١] .

ولا أرى صحة المقارنة بين الآية والبيت الذي اعتبر حشوًا مفسدًا . فالآية في مجال تعداد نعم الله تعالى على الإنسان بوجه عام والكشف عن أنواع النشاط الإنساني ، ومجالات العمل ، وسبل الحياة في البيئة العربية خاصة ، حيث ينقسم سكانها إلى حضر يشيدون بيوتهم للإقامة الدائمة ، وبدو تمرنوا على حياة السفر ، فهداهم الله إلى إقامة منازل مستقلة تناسب حياتهم من جلود الأنعام ، ثم كشف الله عن منابع الاقتصاد ومصادر الثروة في هذه البيئة التي تعتمد على الرعي والإبل ﴿ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ ﴾ يتكاثر المال بين أيديهم ليصبح زينة الدنيا وأساس المنفعة ، فالأثاث هنا رمز لكثرة المال ، وهو صريح قول الراغب (وقيل للمال كله إذا كثر أثاث) [٢] ، ويكون المتاع هو الزينة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ولعله ربط بين الآية وبين قوله تعالى ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (الكهف:٤٩) ، فهو إما من عطف المسبب على السبب ، على تفسير المتاع بالزينة ، وإما من عطف الخاص على العام إذا فسر المتاع بما ينتفع به في البيت خاصة ، وهو ما ذهب إليه الخازن ، حيث يقول : « فإن قلت : أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره

---

(١) روح المعاني ١٤/٢٠٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٩ .

بواو العطف ، والعطف يوجب المغايرة ، فهل من فرق ؟ قلت : الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه ، وغير ذلك فيدخل فيه جميع أصناف المال ، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة، فظهر الفرق بين اللفظين ، والله أعلم) »[1].

٥- العوج والأمت :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ (طه:١٠٥-١٠٧) .

تتحدث الآيات عن جانب من قدرة الله تعالى يظهره الله لخلقه يوم القيامة ، حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسموات،والسؤال هنا عن الجبال ماذا يحدث لها يوم القيامة سواء كان السؤال قد وقع بالفعل ، أو كان متوقعا أن يُسأل ، فجاء الجواب بأن الله سيمحو هذه الجبال ولا يُبقى لها أثرًا لتصبح الأرض مستوية ملساء ، وكأن الجبال لم تكن ، حيث لا تبصر العين أثرًا يدل عليها بعد نسفها ، فقوله ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ إثبات لما ستكون عليه الأرض يومئذ ، وقوله ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ نفي لتوهم بقاء أي أثر للجبال ، فرقًا بين قدرة الله في الإزالة وقدرة المخلوق ، فإن المشاهد أن النسف لابد أن يبقى بعده أثر يدل عليه ، فكان نفي العوج دليلاً على أن الله حين اقتلع هذه الجبال لم يترك مكانها ميلاً أو انخفاضًا ، ونفي الأمت دليلاً على أنه لم يترك أثرًا بارزًا أو نتوءًا يسيرًا، وهذا كمال القدرة . يقول صاحب اللسان : « وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع »[2]. وهو أحد الوجوه التي رويت عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] ، وعليه جرى كثير من المفسرين . يقول النسفي ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ أي انخفاضًا ﴿ وَلَآ أَمْتًا ﴾ ارتفاعًا ، والعوج بالكسر ، وإن كان في المعاني ، كما أن المفتوح في الأعيان والأرض عين ، ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها

---

(١) لباب التأويل ١٢٩/٣ .
(٢) لسان العرب مادة (أمت) .
(٣) راجع تفسير القرطبي ٤٢٨٦/٦ .

اعوجاج بوجه ما وإن دقت الحيلة ولطفت جرى مجرى المعاني» [1]، ويقول الخازن : «أي لا انخفاضًا ولا ارتفاعًا»[2].

وبذلك يصبح ما توهم أنه من المترادف مشعرًا بالتقابل والتضاد .

٦- الظلم والهضم :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

(طه:١١٢) .

فالظلم والهضم مما قيل بترادفهما كما نقل السيوطي .

والحق أن الكلمتين متغايرتان ، وعطف الهضم على الظلم من عطف الترقي بنفي الأعظم ، وهو الظلم الذي يذهب بالحق كله فلا يثاب على الطاعة أو يعاقب بغير معصية ، ثم ينفى الأدنى وهو نقصان الثواب وهضم بعض الحق تأكيدًا للعدل الإلهي في مقام يوهم العجز عن الدفاع عن النفس والمنافحة عن الحق . فقد سبق الآية ذكر بعض مشاهد القيامة وما تعانيه الأنفس من الأهوال وما يحل عليها من الرهبة والفزع ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (طه:١٠٨-١١١) .

فالخلق كلهم مأخوذون بجلال الموقف ، والرهبة تملأ قلوبهم وتعقد ألسنتهم ، فلا تسمع إلا شفاعة من أذن له الرحمن بالشفاعة لمن يرى الله قبول الشفاعة فيهم ، وذلك مقام يتطلب التأكيد على أن الرهبة والعجز وقبول الشفاعة ممن يشاء لمن يشاء لا يقدح في عدالته ، ولا يحق أن يتسرب إلى النفوس أدنى شك في النقص من الحقوق فضلاً عن ضياعها . فنفي الظلم الذي هو أعظم الغبن لا ينفى أدناه من الغبن اليسير بالنقصان في بعض الحقوق ،

---

(١) مدارك التنزيل ٣/٢٤٧ .

(٢) لباب التأويل ٣/٢٤٧ .

فجاء العطف على سبيل الترقي من نفي الأعلى إلى الأدنى دفعًا لأي توهم ، وتأكيدا لعدل الحق تبارك وتعالى ، فهو شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ (هود:١٠٩) ، فكما أن قوله ﴿ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ ليس تكرارًا كذلك قوله ، ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ ليس بالتكرار ولا الترادف . يقول الرازي : «والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة ، والهضم أن ينقص من ثوابه» [١].

٧- العداوة والبغضاء :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة:٤) .

يقول ابن الأثير : «فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإنما حسن إيرادهما معًا في معرض واحد ، لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به ، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده . وللمبالغة في إظهار القطيعة والمصادفة ورد مثل ذلك في مثل هذا الموضع كالإيجاز في موضعه ، ولن ترى شيئًا يرد في القرآن الكريم من هذا القبيل إلا وهو لأمر اقتضاه وإن خفى عنك موضع السر فيه» [٢] .

فكون اللفظين يفيدان المبالغة في إظهار القطيعة والمصادفة وتأكيد البراءة تعليل حسن ، ولكنهما ليسا بمعنى واحد .

يقول ابن منظور : «العدو ضد الصديق ... والعداوة اسم عام من العدو» [٣].

ومعنى ذلك أن الصداقة كما تعني التناصر والتعاون فإن العداوة تنبئ عن التخاذل والانشقاق ، والعداوة والصداقة تتدخل فيهما مصالح الإنسان ومعاشه

---

(١) مفاتيح الغيب ٦/٧٤ . (٢) المثل السائر القسم الثالث ص ٣٤ .
(٣) لسان العرب مادة (عدا) .

وفكره ومعتقداته ، فتنعكس على التعامل بين الأفراد والجماعات اتحادًا وتعاونًا في سبيل تحقيق هدف مشترك ، أو تقاطعًا وتدابرًا إذا اختلفت الوجهتان ، وكثيرا ما تتغير هذه المواقف بتغير الظروف والمصالح ، فينقلب عدو الأمس صديق اليوم ، وربما يصادق الرجل عدوه وهو كاره له إذا اقتضت الضرورة ذلك ، على حد قول المتنبي :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

أما البغض فذلك من عمل القلوب ، وهو أشد أثرًا وأحكم عداء . يقول الراغب : «البغض نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه وهو ضد الحب ، فإن الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه» [1] .

ويقول ابن منظور : «البغض والبغضة نقيض الحب ـ والبغضاء شدة البغض» [2] ، فلو اكتفى في الآية موضع حديثنا بالعداوة لربما توهم مجرد المقاطعة مع بقاء عاطفة الحب التي تربط بين الأبناء والآباء والإخوة فلا يكون ذلك دليلاً على كمال الإيمان ، على حد قول الرسول عليه السلام : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين» ، فلما عطف البغضاء على العداوة أفاد أن كمال إيمانهم وصدق حبهم لله ورغبتهم فيما عنده كره إلى نفوسهم من كانوا بالأمس أحب الناس إليهم ، وأقربهم إلى قلوبهم وأرواحهم ، وتلك منزلة في الإيمان لا تدانيها منزلة .

وفي قوله تعالى تصويرًا للخلاف المحتوم بين فرق النصارى ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (المائدة:١٤) ، أوحى عطف البغضاء بعمق هذا الخلاف واستحالة الالتقاء الفكري والعقدي بينهم ، بما امتلأت به قلوبهم من الكراهية والحقد الذي لا يستطيع الزمن أن يمحوه ، ومثل ذلك قاله الله عن اليهود ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾(المائدة:٦٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٥٥ . (٢) لسان العرب مادة (بغض) .